طه حسين

رجل وفكر وعصر

الدكتور أحمد علبي

هذه الجبهة العالية ظلت ملساء حتى الرحيل[1] ، وهي - كما يذكر « بيرك » - أشبه بمعبد إغريقي[2] ، وهذا الصوت بقي محتفظاً بفرادته في الأذن العربية «صوته الهادىء الواضح العميق الذي يذكر بنغم أوتار متوسطة بين الكمنجة والفيولونسيل»[3] . «فما أحلى الاستماع اليه ، وما أمتع ان تتذوق كل الحواس صوته المنغّم وعباراته المرتّلة وفكرته الأنيقة وضحكته الحلوة ذات الرنين»[4] . ان جبهة طه حسين أطلت على المثقفين العرب بل على الجمهور الواسع مرتفعة ملهمة هادية طوال ثلاثة عقود ، «بل لست أغالي اذا قلت إن من عاشوا بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٥٠ يستطيعون ان يقولوا إنهم عاشوا في عصر طه حسين ، كما يقول الناس إنهم عاشوا في عصر شكسبير او في أيام فولتير»[5] . وان صوته الدافىء لبث جاذباً آسراً بتعرّجاته وطبقاته ، وهو الصوت الحامل لأسلوب مبتكر يخترق المألوف الذي كان مزخرفاً مثقلاً باللفظ ويطرح على العربية موسيقى جديدة . «ثم تكون الايماءة الأولى : حركة من الرأس كأنما يستطيل برقبته النحيلة ليَرى او ليُرى . ثم تكون الايماءة الثانية : ضربة باطن كف بظاهر كف أخرى . ثم ينحدر السيل ، لا يحمل الا كل مصطفى مختار»[6] . « كان الاسلوب بالنسبة اليه ، كما بالنسبة الى فلوبير الذي كان طه معجباً به ، نمط حياة وتفكير ، وأضيف : طريقة عيش »[7] . وكما يقول اندريه جيد في مقدّمته لكتاب « الايام » المترجم الى الفرنسية : « لا أدهش كثيراً ان أسمع ما يقال بأن التحرير الذي أحدثه طه حسين قد تناول أولاً وبشكل رئيسي اللغة نفسها ، ذلك انه لا ثورة فكرية وأخلاقية لا تملي تجديداً شكلياً وتقود اليه والى إعادة صياغة التعبير »[8] .

ثورة التعبير عند طه حسين كانت مقترنة بثورة الفكر ومرصدة لتحرير العقل من الأغلال والأدب من العبودية . ذلك « ان الفن حرية لا رق ، فاذا أردت من الشباب ان يذوقوا الفن ويسيغوه ويحاولوه ويبتكروه فاجعلهم أحراراً ، لأن الفن أثر من آثار الأحرار لا من آثار العبيد »[9] . والحرية معركة ومهمة نضالية ، ولقد كان طه حسين رجل مجابهة وتحد . فمنذ ارتحل عن الصعيد ليفد الى الأزهر ، ثم بارحه سئماً ليلج الجامعة المصرية ، الوليدة للتوّ ، دارساً ، وليرجع اليها ، إثر عودته من فرنسا ، محاضراً فعميداً فرئيساً . . . منذ بداياته وعبر مختلف المناصب العلمية والسياسية الحسّاسة التي تولاها ، والصحف التي نثر في صفحاتها أفكاره في الأدب والاجتماع والدين والسياسة ، وخلال عشرات الكتب التي أخرجها للناس ، نعثر عند طه على كلف بايقاظ العقول وتوق الى رجها . وله في هذا الكلف عذر اجتماعي وآخر شخصي . فطه عاصر في مصر وحواليها من البلدان شرقاً عربياً ما زال يقتات بالأوهام ويحيا على النذور والعصبيات . ومجتمع هذا شأنه لا يجدي معه التأني المفرط ولا يفلح التلمس لقضاياه الفكرية برفق وحذر وتحوّط ، اذ إن العملية القيصرية ربما كانت هي سبيله الأوحد ليخرج من حال الى حال ، ولينفض عن كاهله غباراً تاريخياً متراكماً من الخرافات والعقد ينوء بحمله ويحجب عنه الرؤية المستقبلية . وطه الذي يقارع الجمود والمحافظة وسبات العصور يتسلح بالعلم ليصيب من الجهالة والزيف مقتلاً . ومهمته جليلة وقد ندب لها نفسه ، لأنه في دخيلته ، ولعوامل شتى كوّنت شخصيته ، يهوى المغامرة ويتطلع الى حلبات الصراع . وقد حفلت حياته بالعراك النقدي يخوضه غير هيّاب بل يلذّ له ويشتاق .

مصر التي أبصر طه فيها النور خطفاً ثم حرمه دهراً ، هي تاريخياً للحضارة ملاذ وللثقافة موئل[10] . ولكن الحرية مضامة ◁

---

(١) سوزان طه حسين : معك، ص ٧٠ .

(٢) Taha Hussein: Au delà du Nil, Introduction par Jacques Berque, p.19.

(٣) لويس عوض : الحرية ونقد الحرية ، ص ٧ .

(٤) موسى صبري : نجوم على الأرض ، ص ٣١ .

(٥) صلاح عبد الصبور : ماذا يبقى منهم للتاريخ ؟ ، ص ٣١ .

(٦) شكري فيصل : « طه حسين : ذكريات ومواقف » ، مجلة « المعرفة » ع ١٥٣ (تشرين الثاني ١٩٧٤)، ص ٢٧ .

(٧) Raymond Francis: «Itinéraire de Taha Hussein», in: La Nouvelle Revue du Caire, Vol.1(1975), p. 46.

(٨) Taha Hussein: Le Livre des Jours, Préface d'André Gide, p. 13.

(٩) طه حسين: مرآة الضمير الحديث ، ص ١١٧ و ١١٨ .

(١٠) في سنة ولادة طه حسين، أي ١٨٨٩، «كان هناك خمسون جريدة عربية يومية في القاهرة وحدها ، وفي مصر حوالى ٢٠٠ جريدة ومجلة » (جاكوب لاندو : الحياة النيابية والأحزاب في مصر ، من ١٨٦٦ الى ١٩٥٢، ص ١١١) .

والعقل مكبّل لعهد طه ، ولهذا فهو يقول غداة ثورة يوليو ١٩٥٢ : « فمصر لا تحتاج الى شيء بمقدار ما تحتاج الى ان تحرر عقول أبنائها ، وهي اذا حررت عقول أبنائها بلغت كل ما تريد في فروع الحياة جميعاً . . . والعقل الحر هو الذي لا يقبل ان يفرض السلطان السياسي عليه رأياً من الآراء او مذهباً من المذاهب او سيرة بعينها في التفكير والتعبير والعمل والنشاط . والعقل الحر هو الذي لا يقبل ديكتاتورية مهما يكن لونها ومهما يكن غرضها ومهما يكن أسلوبها في الحكم . . . لن نرضى من الثورة الا بأن يتسع سلطان العقل حتى يغذو بالمعرفة نفوس المواطنين جميعاً ، وبأن تتسع آفاق العقل حتى يتلقى المعرفة من أقطار الأرض جميعاً ، وبأن يعظم سلطان العقل حتى لا يخشى رقيباً حين يعلن ما يرى خطأ كان ام صواباً »(١) .

بين عام مولده ١٨٨٩ في ١٤نوفمبر وعام رحيله ١٩٧٣ في ٢٨ اكتوبر تدفقت مياه كثيرة تحت الجسر وقامت أحداث وانطوت ثورات . فطه ابن بلد يعج بالثقافة والحدث والمخاض . ولم يكن صاحب «الايام» متفرجاً على التاريخ تتوالى صفحاته في وطنه . فهو عندما كانت مصر العتيقة تتجدد كان مشاركاً لها ومكافحاً عنها ، ويحفظ له التاريخ بين طيّاته مواقف مشهودة انتصاراً للحرية والتقدم . معجزة طه « هي انه اتخذ مكاناً أمامياً ثورياً مستقبلياً في الأدب . مع ان الانسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، ان يتخذ مكاناً تقليدياً حيث يراعي « قواعد النحو والصرف » في الأدب والاجتماع والسياسة »(٢) .

(٢)

هذا الظامىء ابداً الى المعرفة في شغف وهيام ظل حتى ساعاته الأخيرة يطلب الكتاب ويصغي ولا يملّ ، برغم تكاثر العلل على جسده . انه « الظمأ الذي لا يطفئه اكتساب العلم وانما يزيده قوة وشدة والتهاباً . فأنا لا أحصل نصيباً من المعرفة الا أغراني بأن أحصّل شيئاً آخر أبعد منه مدى وأشد عمقاً . وليس في هذا نفسه شيء من الغرابة . فاذا كانت حاجة من عاش لا تنقضي ، فحاجة من ذاق المعرفة أشد الحاجات وأعظمها اغراء بالتزيد منها والامعان فيها »(٣) . انه درس للأجيال العربية كيف تكون الثقافة خبزاً يومياً وغذاء حقيقياً وعطشاً لا يروى ولهفة مشبوبة .

« لقد أعطانا طه حسين من أفكاره وكتبه الكثير . ومع ذلك فاننا نظلم طه حسين كثيراً لو قسناه فقط بكتبه . انني أحس دائماً ان حجم طه حسين الحقيقي أكبر من كتبه ، اكبر كثيراً . . . ان حياة طه حسين سوف تكون هي نفسها أحسن وأعظم كتاب يصدر عن طه حسين ! »(٤) . على اننا في هذا العمل حرصنا على تناول النوعين : فقد حظيتْ كُتُب طه حسين الصادرة ضمن المرحلة التاريخية التي وقفنا عندها ، اي الى حين انتهاء زمن التحصيل في حياة طه ، بدراسة نقدية شافية . وهكذا تناولنا بالتحليل الواسع « تجديد ذكرى أبي العلاء » و « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » . اما « الكتاب » الاخر العظيم الصادر عن طه حسين ، عنينا حياته الحافلة ، فقد وفّيناها حقها من التمحيص والتدقيق والوقوف عند التفصيل ، وذلك لاعتقادنا اننا ونحن نستعرض حياة طه انما نرسم لوحة لعصره من خلال المؤسسات الثقافية التي انتمى اليها والأساتذة العلماء الذين أخذ عنهم المعرفة وانفعل بآرائهم وتكوّن .

ومن كانت حياته شأن ما كانت عليه حياة طه فالتأريخ لها شائق بمقدار ما هو ضروري ، لأن تناولها يتخطى حياة الفرد المتميز المتفوق النابه الذي هو طه حسين الى إطار أوسع بكثير هو المجتمع المصري والعربي في احتدامه وصراعه وأحلامه بالأجمل . وربّ أدباء توارت أحداث حياتهم دون ان تتوارى أعمالهم ، لكن طه شغل الناس ، في أدبنا الحديث ، وشغلوه ، وعانى من أصنام عصره وعبدتها ما عانى . فأعماله مشتبكة مع أوضاعه الذاتية وظروفه الاجتماعية ، وهو قبل وبعد عاش الثقافة موصولة بارتباطاتها الصميمة ، ولم يكن يوماً بمنأى عن تيار التنظيمات السياسية التي عرفتها مصر . لهذا فان التأريخ لهذه الحياة الحافلة الجياشة جميل وصعب . وتتأتى الصعوبة من انه مهما حاولنا ان نلملم الذرّات المبعثرة لهذه الحياة الغنية فلن نصل ، في نهاية المطاف ، الا الى تنسيق ذرّات الحقيقة . فحياة الأديب الكبير « المشاغب » المكافح هي أغنى بكثير من ان نضع أيدينا عليها ، الا اذا كان في الامكان ان نجمع الشمس في عدسة او البحر في صدفة او الحياة نفسها بين دفتي كتاب ! من هنا كان همنا منصباً م عند تحبير حياته ، على ان نجد معادلة فيها شيء من الجدة في العرض والأسلوب تخرج عن نطاق السرد الرتيب . وقد عولنا في هذا السبيل على مراجع متعددة الأنواع : فهناك ما قلب طه حسين نفسه من أوراق حياته وعبر عنه بقلمه في سيرة ذاتية ممتعة عبر الأجزاء الثلاثة من « الايام » . وهناك ما كتبه بعض معاصريه ممن عرفوه عن كثب ، او ممن ترددوا عليه واتصلوا به . وهناك المقابلات الصحفية التي عقدت مع طه حسين ، خلال مراحل حياته ، وهي مبعثرة في طوايا المجلات . وهناك الكتاب الجميل الذي خطّته زوجه سوزان « معك » . . . هل نحن نكتب سيرة ؟ بلى لكنها سيرة رائد ترك بصماته على عقول لا تحصى وأثار في حياتنا الثقافية غباراً كثيفاً . وليس دافعنا الى الاحتفال بسيرته انه كان غير مبصر ، فكم تساءلنا في اثناء هذا العمل : هل حقاً ان طه حسين كان ضريراً ؟! ولم نشأ ان ننفرد بموضوع واحد متصل بحياة طه وفكره ، انما طموحنا يذهب الى الاحاطة جملة وتفصيلاً . ولئن قعدت بنا الظروف العملية عن اتمام الرحلة عند نهاياتها والتوقف مرحلة مرحلة عند المحطات المختلفة وما

(١) طه حسين : « تحرير العقل »، مجلة « الكتاب » (جزء خاص بالثورة والتحرر)، س ٨، ج ١ (يناير ١٩٥٣) ، ص ٤٣ و٤٤ .
(٢) سلامه موسى : تربية سلامة موسى ، ص ٢٢٣ .
(٣) طه حسين : « حب للمعرفة وصبر على المكروه »، مقال وارد في كتاب: هذا مذهبي ، بأقلام نخبة من الشرق والغرب ، ص ٣٩و ٤٠ .
(٤) محمود عوض : شخصيات ، ص ٣٢.

تطرح من موضوعات واشكالات ، ففي البال ان نمضي عقب نشر هذا العمل في متابعة الشوط وعدم التوقف مع طه عند منتصف الطريق .

هذا « الضرير » الذي جعل الناس يبصرون امتدت به البصيرة بعيداً وراء البحر ، وهكذا عبره ذات يوم وانتقل من ضفة الى أخرى. فهو ابن شيخ شبه فقير وتربى في ظلال القرآن ، ثم كان له ان يغدو أزهرياً ، شأن أخيه الأكبر ، يقرأ التفاسير على الطريقة المعهودة . لكن الشيخ طه ركب البحر بعدها ، ورمى بالعِمامة في اليمّ الى غير رجعة اليها . ومع عبوره هذا الأبيض المالح عبر ايضاً من صحن الأزهر الى ضِفاف الثقافة الفرنسية والى مِهاد اللاتينية واليونانية . لقد انتقل من ضفة عربية اسلامية سلفية الى ضفة غربية ليبرالية معاصرة . ولئن لم تكن النقلة حدثاً بدعاً في تاريخنا الفكري ، اذ سبق لشيخ إمام هو رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ان استظل بهذه الثقافة الغربية ، أيام محمد علي وأسرته الحاكمة ، وكان لنا من سفر رفاعة وإيابه من باريس ريادة ثقافية وفرادة لها وقعها المرنان في المحيط الفكري المصري على نحو خاص . لئن كان طه مسبوقاً فلقد تميز بإشعاع محليّ وعربيّ ، وبدينامّية فكرية عُرف بها واشتهر . فهو تجربة أخرى اتصل فيها العلم بالعمل ، لأن طه حسين رجل ثقافة مقاتل ، لهذا فان علمه الذي هو الشجرة اقترن بعمله الذي هو الثمرة . لقد خرج طه من عباءة الأزهر وانخرط بالحياة الأوروبية ومفاهيمها العصرية ، وغدا « غربي » التفكير والمتّجه . ولقد وقفنا في الفصل الأخير من هذه الرسالة مطوّلاً عند « تغريبة » طه حسين ، وذلك لتحديد الركائز التي بنى عليها مؤلف « مستقبل الثقافة في مصر » عمارته الفكرية التي بقي مباهياً بها وفيّاً لها حتى الغياب . لم تكن المعرفة التي حصلها طه ترفاً يباهي به و « يمزمز » ، وهو القائل : « لم أتعلم لأنتفع وحدي بما تعلمت ، ولأن من الحق على كل مصريّ ان يبذل ما يملك من قوة لإصلاح ما أصاب مصر من فساد »(١) . « ولم يفعل مثلما فعله الكثيرون حين عادوا من أوروبا ، فانكمشوا على ذواتهم منعزلين في أبراج وصوامع ، وانما حرص على تجريب هذه الثقافة في الممارسة وعبر المواقف ، ليفيد في أوسع مجال وليدفع عجلة التغيير والتقدم الى أمام . . . ومن ثم فان طه حسين بما توافر لديه من إمكانات ذاتية ، وبمعايشته لقضايا أساسية ، يعتبر أحسن نموذج لدراسة إشكالية الأدب والثقافة العربيين ، لاستجلاء الإنجازات والمعوّقات ، ولاستخراج الحصيلة وتعميق وتعميق النقد استشرافاً للتجاوز »(٢).

(٣)

في شرق عربي ما فتيء يعاود طرح الأسئلة التي جاش بها عصر طه حسين لا غرابة ان يستمر ابن النيل معاصراً ومتجدداً ثابت الحضور مضيئاً . ان الكاتب ، بعد ان يدور الزمن دورته ، يُقيّم بِبُعدين: بُعْد المعاصرة والبعد الزمني . ولا ننسى ان طه حسين رائد ، ومن نصيب الرائد انه يضرب معوله في أرض شبه بكر ، وبالتالي فهو ممهد وزارع ، وقد يكون القطاف أحياناً من نصيب غيره الذين يأتون بعده . فالريادة تظل باقية في منظور تاريخية الفنون ، لكن الابداع العالي شيء آخر لأنه يغالب الزمن ويزامله . وفي ميدان تقييم طه حسين ، على مستوى البعد الزمني ، فان « الايام » و « على هامش السيرة » مثلا من الأعمال الباقية في تراثه . هذا التراث الذي يتكون من قرابة خمسين كتاباً موضوعاً ، وعشرة كتب مترجمة ، الى جانب الكتب التراثية التي شارك في تحقيقها او مراجعتها ، والكتب المدرسية في الأدب العربي التي اشترك في وضعها . ان أسلوب طه ايضاً ، وهو « السهل الممتنع » الجديد ، قد بوّأه دون ريب مكانة متميزة في تاريخ الأدب العربي الحديث . لقد طلع على الناس بأسلوب لا سابق عهد لهم به عندما أصدر « حديث الأربعاء » (١٩٢٥) . لكن طه باق ايضاً وايضاً لدوره التاريخي التحريري في الأدب والتربية والمجتمع . حياة طه ، كما ذكرنا آنفاً ، « كتاب » جليل . فهو أديب عمل في الصحافة ، وخاض غمرات السياسة ، وبقي دائماً صاحب موقف يقفه ورأي يعلنه . لقد كان صوتاً متميزاً ضد التخلف وتوابعه . ان بقاء طه حسين وتجدده وامتداده والإكبار الذي يحظى به في الذاكرة العربية هي بسبب انه أديب ذو بعد تاريخي وشمولية موسوعية بالنظر الى الاهتمامات التي أكب عليها كاتباً دارساً ناقداً محاضراً متمرساً بناصية القرار ومركز السلطة . طه من حيث الاهتمامات الواسعة درس قل ان يتكرر ، ومن حيث التمرس بالمسؤولية الأدبية والفكرية انما كان مثالاً يحتذى ، ولعل غربيته ذات أثر في حرصه على ان يكون له على الدوام موقف يرضي به ضميره . « كان يعرف نفسه حين يشقى في سبيل ما يرى انه الحق ، وينكرها أشد الانكار بل يبغضها أشد البغض اذا نعم بالخفض واللين لأنه صانع او داجى او جهر بغير ما يسر او آثر رضى السلطان على رضى الضمير »(٣) .

من البداهة القول ان طه حسين كان عظيماً ، وهو يشكل فصلاً ينبض بالحياة والطرافة والابداع في تاريخنا الأدبي والقومي . لكن الملاحظ ان الذين كتبوا عنه معجبين في الأعم او رافضين مسفهين في الأقل ، كانوا يهيلون عليه الثناء او الذم ويغرقونه في لجة من آيات المديح او الهجاء مفرطين غالين . وما هكذا تكون الدراسة العلمية ، اذ تغدو عندها منبراً يقذف نعوت القداسة او الهرطقة . وطه كان أمثولة نيرة في العقلانية ، وهو خير من دعا الى تناول الأدب او التاريخ بعيداً عن هالة تقديس الماضي وعبادته . فكيف ننظر الى طه بمنهج كان يأباه واجتهد في هدمه ؟ « فالشاعر او الكاتب لا يستمد أدبه من شخصه وحده ، ولو

(١) طه حسين : نظام الاثينيين ، مقدمة ، ص ٨.

(٢) محمد برادة : « طه حسين بين النظرية والممارسة »، مقال وارد في الكتاب التذكاري : ذكرى طه حسين ، ص ٢٩٧ .

(٣) مذكرات طه حسين ، ص ٢٦١ .

استطعت لقلت إنه لا يستمد شخصيته من شخصه وحده ، وانما يستمد أكثر فنه وأكثر شخصيته من أشياء اخرى ليس لـه حيلة فيهـا ، وليس لطبيعته ومزاجه وفرديته فيها كـل مـا نـظن من التـأثير . وأكـاد أقـول مـع القـائلين إن الفـرد نفسـه ظـاهـرة اجتماعية ، فهو لم يأت من لا شيء ، وانما جاء من أسرته أولاً ، ولم يكـد يرى النـور حتى تلقتـه الحياة الاجتمـاعيـة فصـورتـه في صورتها وصاغته عـلى مثالهـا وأخضعته لمؤثـراتها التي لا تحصى . فعنصر الفردية فيه ضئيل لا يكاد يحس ، الا ان يمتاز هذا الفرد ، وامتيازه نفسه يرد في كثير من الاحيـان الى الحياة الاجتماعية التي أنشأته »[1] .

« الفرد إذن ظاهرة اجتماعية ، وإذن فليس من البحث القيم العلمي في شيء ان تجعـل الفرد كـل شيء وتمحو الجمـاعـة التي أنشـأته وكـوّنته محـواً ، انما السبيـل ان تقدر الجمـاعـة وان تقـدر الفرد ، وان تجتهد ما استطعت في تحديد الصلة بينهما ، وفي تعيين ما تكليفهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة »[2] . وبناء عـلى هذا الفهم الثـاقب الصادر عن طه لم يكن عملنا أنشودة إطراء وتفخيم له كما هـو حال جـل المبهـورين بكاتب « الفتنـة الكبرى » ، كـما لم يكن نحراً وتشـويهاً للحقيقة الجدلية لتراثـه ككل ، وانما سعينا ببسـاطة الى ان نقـدّم دراسة موضوعية . ولهذا التفتنا مليّاً الى المؤسسات الثقـافية التي تخرّج فيها طه ، لأنها صورة عن المجتمع الذي ابتـدعها ، وكـان لها ان تترك آثارها سلباً وايجاباً في فكره وتطلعاته . « بل ونستطيع ان نـدّعي ان طه حسين هو أصـدق صورة لهـذا العصر مـا بـين الحربين ، لأنـه أخذ من كـل نقائص هـذا العصر بـطرف ، وهو عصر ارتطمت فيه تيارات فكرية ووجدانية عارمة ، وكـانت مصر تبحث فيـه عن كيانها وكـانت تلوح أمامهـا مسالـك عدة وطـرق متفرقة . . . وقد كابد طه حسين كل ذلـك بنفسه ، وجـرّب هذه المسالك المتعددة ، ومن هنا كان عناؤه « تجريبياً » ، لم يتوفر لكثير من معـاصريـه عـلى هـذه الصـورة التي تجمـع بـين الأزهـر والسوربون ، والجبّة والطربـوش »[3] . « ومن هنا فـان عـطاءه الذي امتدّ على أكثر من نصف قـرن قد غـدا قابلا للمناقشـة ، مطروحاً دونما أسوار ، وصار بإمكـاننا ضمن الحـدود التي رسمها هو في موضوعية ترتبط بأرض الـواقع ، ان نـدرسه محـايدين غـير متـأثـرين بـالصخب الـذي كـان ، وبـالمعـارك التي دارت ، او بـالإجـلال السـطحي الـذي يـرفض النقـد ولا يـدرك ان النقـد الموضوعي هو جزء من الاحترام الحقيقي الذي يحمله الـدارسون للفكر الانساني أولاً ولذواتهم ثانياً »[4] .

(٤)

ان البـاحث في طـه حسين لن يجد عنتـاً في العثـور عـلى المراجع . فمؤلفات طه مبذولة شائعة ، وقد صدرت طبعة لآثاره الكاملة . على أننا آثرنـا الرجـوع الى الطبعـات الأولى المتفرقـة ، فهي أدق وأصح متناً وإخراجاً . وطـه حسين كـاتب مجدد ، ومن جملة تجديداتـه المبتكرة انـه اول من كتب في أدبنا العـربي الحديث سيـرته الـذاتية ، وذلـك بشكل أدبي قصصي متفـرد ، فضلاً عن الجـراءة في عرض مكنـونات حيـاته . وجـاءت « مـذكـرات طـه حسين » التي تنتهي عند عودة طه من فـرنسا الى الـوطن ، بمنزلـة التتمة ، وهي تطبع الآن على أنها الجزء الثالث من « الايـام » . وحبذا لو أنها ظلت في حلتهـا الأولى ، لأنها مذكـرات أقرب ربمـا الى صيغة ما ندعوه بالفرنسية « الجورنـال » ، وهي تختلف أسلوباً ومحتوى عن الكتابين السابقين . وكان من أمنيـات طه في أواخـر حياته متابعة كتابة سيرته ، لكنها أمنية جاءت متأخـرة بعد فـوات الأوان اذ كـان عميد الأدب العـربي قـد تقـدم في العمـر واعتلت صحته . فهذه السيرة الذاتية الرحبة تسعف من ينهد الى دراسـة صاحبها ، وخصـوصـاً ان طـه في زمنه هـو مالىء العصـر وشاغـل الناس دون ريب . ولهذا كـان همنا ، من النـاحية المنهجية ، ان نحاول تقديم عمل ، قد يكون نمطاً جديداً في حقـل الدراسـات الأدبيـة عندنـا ، قائم عـلى البحث المدقق في التفـاصيل الحميمـة لحيـاة الكاتب المعني بـالدراسـة ، او بتعبير آخر نستعيره بشكـل تقريبي من الفرنسيين ايضاً فلقـد عمدنـا الى تقديم « طـه حسين منتعلاً البنطفلة » (Taha Husseir en Pantoufles) وبما ان طـه كان أديباً بالمعنى الأروبي للكلمة ، اي كان منخرطاً في أحداث مجتمعه ملتزماً بقضاياه شـاهراً سيف الـرأي والموقف ، لـذا نجد تشـابكاً بـين حيـاتـه ونسيـج العصـر الـذي عـايش شجـونـه وشـارك في معـاركه ، من هنـا تتأتى أهميـة الخلفيّة المجتمعيـة والتاريخيـة التي حرصنا على ان نرسمها لعصر طه حسين . وكلما حـالفنا التـوفيق عبر هذه الأطروحة ان نمزج بين حياة طه ومعالم عصره ومقتضيات الدراسة التحليلية لأدبه الابـداعي والنقدي ، كـانت المحصلة التي خرجنا بها أفضل وأشد تماسكاً وإشراقاً . وفي بحثنا اللؤ وب عن التفاصيل في حيـاة طه انتفعنـا ، فضلاً عن سيـرته الـذاتية ، بـالكتاب الجميـل « معـك » الـذي وضعتـه بـالفـرنسيـة زوجتـه سوزان . كما أفدنا من محمـد الدسـوقي الذي اشتغـل سكرتيراً لدى طه قرابة ثماني سنوات وتركه عام ١٩٧٢ قبل سنـة من وفاة صاحب « الايام » ، وقد أصدر بعدها الدسوقي كتـابين : « أيام مـع طه حسين » و « طه حسين يتحدث عن أعـلام عصـره » . ولكن ينبغي ان نأخذ ما كتبه سكرتير طه هذا بشيء من الحيطة ، لأنه عاصر كاتبنـا في سنواتـه الاخيرة عندما غـدا عليلاً حتى أن ذاكرته العجيبة شرع يلم بهـا الضعف ، بحيث إن زوجته كـانت تحـول قدر الامكـان بينه وبـين اللقاءات الصحفيـة او أنها تحرص على حضورها . ثم ان هذا السكرتير ، على حد اعترافه ، كـان

(١) طه حسين : خصام ونقد ، ص ٢٥٧ .

(٢) طه حسين : قادة الفكر ، ص ٨ .

(٣) كامل زهيري : « طه حسين رجل ومنهج » ، مجلة « الهلال » (عدد خاص عن طه حسين) س ٧٤. ع ٢ (فبراير ١٩٦٦)، ص ١٠٧ .

(٤) نجاح العطار : « مراجعة نقـدية لعـدد طـه حسين من المعرفـة »، مجلة « المعرفة » ع ١٥٥ (كانون الثاني ١٩٧٥)، ص ٥٧ .

يدوّن ما يتحصّل له في علاقته المستمرة بطه تدوين الانسان الرقيب . على أن الدسوقي لو كان أديباً او صاحب ذائقة أدبية ومطلعاً على تاريخ الأدبين العربي والفرنسي ، لكانت صحبته المديدة لطه حسين غدت عندئذ ذات فائدة جليلة للدارسين .

تستوقفنا ، ونحن بصدد الكلام على مراجع تناولت طه ، حقيقةٌ ملفتة للنظر : ان طه حسين لم يدرس بعد دراسة علمية نقدية حقيقية شاملة . هناك مقالات متفرقة كثيرة ، وبعضها القليل جداً مضيء ونافع ، بيد أننا سنتوقف الآن عند الكتب الموقوفة على طه . هذه الكتب الدراسية ذات أنواع أربعة : فهي إما أنها جزئية او قديمة عهد نهجاً وقيمة (نظير أعمال بيار كاكيا ، كمال قلته ، ومفتاح طاهر) ، او انها ذات صبغة صحفية بحيث لا يعول عليها علمياً اذا لزم الأمر الا بحذر (كمال الملاخ ، سامح كريم ، ونجاح عمر) ، او انها سلفية الطابع تنهال على طه تجريحاً وشتماً (مصطفى صادق الرافعي ، أنور الجندي ، وعبد المجيد المحتسب) ، او انها أخيراً سطحية ولا تعرف سوى ان تمتدح طه وان تطنب في هذا المديح (سامي الكيالي ، وجمال الدين الألوسي) . وهناك ، قبل ان نختتم حديثنا حول المراجع ، عمل نرغب الاشارة اليه لأننا نتفاءل بما ينطوي عليه من فكرة سديدة وجديدة ، انه كتاب حمدي السكوت ومارسدن جونز البيبليوغرافي عن طه حسين . مهما كانت الهفوات في هذا العمل ، شأن إهماله او جهله بالدراسات والأعداد الخاصة التي صدرت عن طه في بعض البلاد العربية ، وشأن غياب الحس النقدي في هذا العمل الكبير ، فهويبقى للدارسين منهلاً غزيراً متجدداً ، ما دام ان الباحثين قد أصدرا طبعة ثانية مضافاً اليها . على أن عتبنا عليهما ان من تتوافر بين يديه مئات المراجع عن طه حسين يجمل به ان يعطي مقدمة معمقة ضافية نفيسة ، في حين ان ما كتباه لا يشفي مع الاسف غليلاً ولا يسد رمقاً !

لسنا طبعاً اول من تصدى لدراسة طه حسين ، ولكن نخال اننا نحونا في درسه نحواً جديداً ، اذ اهتممنا بمتابعة التطور الحياتي والفكري والذاتي والإبداعي لهذا الرائد في تاريخ الثقافة العربية ، وذلك ضمن اطار من اللوحة « البانورامية » الاجتماعية والتاريخية وما تخللها من احداث مؤثرة وما طرأ عليها من أعلام تركوا كلمات باقيات في التطور الجدلي للفكر والحياة . بهذا المنحى الشمولي كتبنا عن طه حسين عملنا هذا ، ولو قدر لهذه الرحلة ان تصل الى نهايتها ، اي ان تنتقل من مرحلة الطلب والتلفت والبواكير والأطروحات وهي التي انجزناها بتوسع وسوينا مداميكها ، الى مرحلة التساؤل والانتاج والعراك وهي التي نتطلع الى تناولها في السنين المقبلات ، لبان عندها على نحو اسطع الجهد التأسيسي الذي أرسيناه في فهم تطور طه وما آل اليه في سنواته اللاحقة ، وخصوصاً تلك النقلة التي قطعها لعهده ذاك من لجة التيار الديني الوطني متمثلاً بعبد العزيز جاويش الى معترك التيار الليبرالي متمثلاً باحمد لطفي السيد . اذ الانسان في نهاية المطاف نتاج متفاعل لظروف وبيئات واحوال لا يكون له يد فيها غالباً ، لكنها تترك بصماتها على مجرى رحلة العمر والفكر التي يقطعها . نقول : نتاج متفاعل ، لأن طه كان ازهرياً وجامعياً واروبي الهوى ومسلماً ومصرياً ، وهو في هذا كله تدرج من حال الى حال بفعل المؤثرات البيئية والثقافية التي انضجت اختياره الشخصي وصقلت توجهه، وأدت به الى ان يصير ، كما عبر طه حسين نفسه في تمهيد كتابه «تجديد ذكرى ابي العلاء »، من النتاج الى وضع الانتاج . وفي ما يختص باللوحة الكبرى التي رسمناها لعصر طه وفي ما يدخل بالتفاصيل الحميمة لحياته في الصعيد والأزهر والجامعة والسوربون نعتقد اننا وفيناها حقها تماما ، واقتضانا هذا السعي الدؤوب غوصاً في الكتب المختلفة ونبشاً في المجلات القديمة ، بحيث إننا لم نترك ربما زيادة لمستزيد اللهم الا في تفاصيل طارئة لا تغير بشيء من الملامح العامة والحقائق المرسومة .

ومن النتائج الطيبة التي خلصنا اليها في هذا العمل المحطة التحليلية النقدية المسهبة التي خصصنا بها طه عبر اعماله التي وقفها على دراسة ابي العلاء وابن خلدون . فطه برغم الشهرة التي تمتع بها خلال حياته الحافلة لم يحظ عموماً بالدراسة العلمية المتأنية لأعماله ، فلقد كان غالباً موضوعاً للإطراء والثناء بدون حدود او الطعن والقدح بغير ضوابط ايضاً ، ولم ينبر دارس او ناقد لتقييم مؤلفاته واحلالها المكانة العلمية التي تستحقها . وهكذا بذلنا الجهد دونما تأثر بصيت طه . فليس في العلم فلان الشهير او فلان ، ونحسب اننا انتهينا الى احكام لا اعتساف فيها ولا شطط وانما هدتنا اليها المعرفة والموضوعية . وعلى هذا المنوال انعمنا النظر طويلاً في كل ما كتبه طه عن ابي العلاء ، وحللنا منهجه وناقشنا اجتهاداته وقمنا بعمل تشريحي للمقالة إثر المقالة ، حتى أكسبنا جهود طه في مؤلفاته « تجديد ذكرى ابي العلاء »، « مع أبي العلاء في سجنه »، و« صوت أبي العلاء »، الصفات العلمية التي هي بها جديرة . وكان طه في دراسته لأبي العلاء أوفر توفيقاً وإصابة ورحابة مما هو حاله عند تصديه لفهم ابن خلدون . وربما تأتى له هذا لأن دراسة ابن خلدون تحتاج الى عقل متفلسف او فكر متأمل او ذهنية رجل عملي عارك السياسة والسلطة واستوعب دروس التاريخ فيها . ان عمل طه عن صاحب « المقدمة » يغلب عليه طابع العرض والشرح والتلخيص ، واشتمل على هفوات عديدة بحق ابن خلدون او بحق آرائه ، على انه لم يخل من نقدات مصيبة والتماعات مقتضبة فذهن طه يعرف كيف يقتنص او يقتبس الفكرة المضيئة الملتمعة .

ولعل من النتائج العلمية التي نعتز بها في عملنا الأكاديمي هذا ، الفصل الختامي الطويل الذي عقدناه حول « تغربية » طه حسين ، وكان بمنزلة الخلاصة والرابط بين اجزاء الأطروحة وفي لم جوانب مسيرة هذا الرائد الفكرية في تنقله بين الثقافة الأزهرية السلفية والثقافة الغربية العصرية . وفي هذا المجال اوضحنا بجلاء كيف ان طه الذي تصدر الجبهة الثقافية في مصر ما بين ثورتي ١٩١٩ و١٩٥٢، كان ممثلاً طليعياً ثابتاً لما ندعوه العلمانية

الاسلامية ، اذ انه نبذ التوفيقية ومال الى الفهم العلماني الغربي الحر ، حتى في صميم اسلامياته ، بحيث جاءت هذه الاسلاميات عقلانية المنزع . ان طه نموذج له فضل الريادة لما ينبغي ان يكون عليه المثقف العربي . فطه هو الملتزم بقضايا مجتمعه ، المنافح عن الحرية والانسان ، الثائر بضروب الجهالة والتقليد ، وهو الذي لم يتردد لحظة في ان يكون له موقع على خارطة الصراع السياسي في بلده . الثقافة موقف ، وطه كان دائماً صاحب موقف في نصرة المبادىء والحقائق . فلقد كان اديباً نزاعاً الى الفن والتقدم ، ساعياً الى تأمين كرامة المواطن وعزة الشعب .

(٥)

وبعد ، يحملني الوفاء، في ختام هذا التمهيد ، على ان انوه بامور ثلاثة لا مندوحة من ذكرها إقراراً بالحق وعرفاناً بالجميل .

ما كان لهذا العمل ان يرى النور لولا المحبة التي اولاني اياها الدكتور جبور عبد النور ، استاذي وصديقي وصاحب الأيادي البيضاء على جيل من اساتذة الجامعات وحملة الألقاب العلمية في لبنان . هذا الانسان الكبير يعمل في صمت ، وهو يسدي العون في صدر رحب ونفس ودودة وصبر جميل . فالى شخصه السمح اسدي خالص امتناني .

وهذه الرسالة كتبتها وانا جالس دائما الى طاولة واسعة مغطاة بالكتب والأوراق تقع في صدر قاعة « رايسكه» المطلة على حديقة مخضوضرة مزهرة ، وذلك في رحاب « المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت » . لقد نعمت بضيافة هذا المعهد الذي اتردد عليه منذ سنوات مديدة حيث اعمل في كتابة ابحاثي ، وحيث عقدت صداقات مع بعض الزملاء الفضلاء من المستشرقين الألمان . وأنا مدين لهذا المعهد ، فضلاً عن الضيافة والرعاية والثقة التي غمرني بها باستمرار ، بما جنيت من فوائد جمة من مكتبته العامرة الباذخة . وأرى من واجبي ان اوجه الى القائمين على هذا المعهد العلمي الزاهر تحية الشكر الوافر .

ولقد كتبت هذه الأطروحة ابان اربع سنوات مريرة (٧٩ ـ ١٩٨٢) توالت فيها على الوطن وما زالت احداث ومحن وكوارث وحصار ، وبالتالي فقد كان عملي هذا عرضة في احايين كثيرة للاهتزاز والتقطع والتوقف ، دعك الآن من ذكر البال المشغول والقلب المشحون . ولا ريب ان لأم ولدي (لميس عبد الواحد)، ولهذين النجمين « عمار » و « وضاح »، افضالاً وأيادي ناعمة كانت مسعفة لي ومعواناً على الانصراف لاتمام هذا العمل في الصورة التي انتهى اليها . فاليهم يفيض قلبي بالحب والتذكار (*)

(*) مقدمة كتاب « طه حسين : رجل وفكر وعصر » الذي يصدر هذا الشهر عن دار الآداب بيروت .

دار الآداب تقدم

الدكتور شاكر خصباك

ابن بطوطة ورحلته